

كتاب في «الدين الإسلامي»

للأستاذ علي الطنطاوي

—

كان الأعرابي الجاني ، يقعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ساعة من زمان يستمع فيها إليه ، فلا يقوم إلا وقد فهم الإسلام وعرفه ، وصار من البشرين به والداعين إليه . وكان يصحب النبي أياماً فلا تنقضي حتى يندو علماً ، يبعثه النبي إلى قومه معلماً ومرشداً ، فيعرفهم الحدود ، ويبين لهم الحلال من الحرام ...

كان هذا يوم لم يكن تدوين ، ولم تصنف المصنفات ، ولم يجمع الأحاديث ... وما نحن أولاء نملك أكثر من مائة ألف كتاب ورسالة في التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف والسيرة والخلاف وكل ما يخطر على بال باحث من المسائل المتصلة بالإسلام ، ولكننا لا نجد فيها كتاباً واحداً يخص الإسلام كله تلخيصاً وافياً ، وعرضه عرضاً واضحاً ، يقرؤه الشاب فيفهم ، فيفهم فيه الدين كله كفهم الوافدين على النبي الدين ، حين دخلوا فيه أفواجا ...

ولقد أحسست بهذا النقص منذ ابتداء عهدي بالطلب ، وعرضت له في رسائل (في سبيل الإصلاح) التي نشرتها في دمشق (أترعودني من مصر سنة ١٩٢٩) . بيد أني لم أعرف خطره إلا أمس ، حين درست الدين في مدارس العراق ، وشرحت للطلاب مزاياه ، وكشفت لهم عن عظمتهم ، فكانوا يتشوقون إلى زيادة الاطلاع ، ويرغبون في متابعة الدرس . فيسألونني عن الكتاب الذي يجدون فيه خلاصة الدين ، كما يجدون خلاصة الطيبة أو الهندسة في كتاب واحد ، فأفكر فيه فلا أجده ، ولا أجد إلا علوماً كثيرة من كلام وفقه وحديث وتفسير فيها آلاف من الكتب ، يعتدها المؤرخون أعين تراث للعقل البشري وأغناه ، ولكنها أصبحت اليوم بالية الأسلوب ، قديمة الطراز ، كحلية من الذهب ، ما تقص الذهب ولا خاس ، ولكن أنكر الشكل وتغيرت الأذواق ، والصائغ الماهر يحول الحلية من حال إلى حال ... وكنت أخاف أن ينصرف الطلاب عن دراسة الإسلام ، وتموت في نفوسهم الرغبة فيه ، إذا أنا دللتهم عليها وأردتهم على قراءتها . وليت شعري

أقول للطالب الذي لم تدع له دروسه الكثيرة ، لإبقية من وقت ، آثر أن يشغلها بدراسة الدين عن أن ينفقها في حق نفسه وراحته ، أقول له ، إنك لا تفهم الإسلام حتى تقرأ (النسفية) و(السنوسية) وأشباهاها وتدخل في كل باب من أبواب الفلسفة الفارغة ... والجدل المقيم ... وتدور مع المذاهب الباطلة والرد عليها ، والآراء الخاطئة ودفعها ، وتحفظ كفر أقوام انقضوا واقطع دابرهم ، كل ذلك لتفهم التوحيد الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسهلاً لا فلسفة فيه ولا جدال ... وتقرأ (الطنطاوي) والشربلاني أو (الباجوري) أو غيرها من كتب الفروع ، وتملأ الرأس منك فروضاً مستحيلة ، واحتمالات بعيدة ، تتخلل الأحكام ، وتجيء مع قوانين الشريعة ، كل ذلك لتعرف كيف تصلى وتصوم ، وقد كان البدوي يتعلم الصلاة والصيام في ساعة واحدة ويؤديهما من بعدها على وجه الكمال ... وتقرأ (شروح المنار) أو (جمع الجوامع) وتكسر دماغك في كلام هو (والله العظيم) أشبه بالطلاسم والأحاجي منه بالعلم وأسلوبه البين ، لتفهم أصول الفقه ، والأصول في هذا الدين ثابتة ثبوت الجبال ، واضحة وضوح الشمس ، مستقيمة كخيوط النور لا عوج فيها ولا تتواء ، ولا غموض ولا إبهام ... وتقرأ (النخبة) أو (مقدمة ابن الصلاح) لتفهم مصطلح الحديث ، وتقرأ بعد ذلك شيئاً كثيراً ... ثم لا تنجو بعده من أن يتهمك الجشويون بأنك وهابي ، والسلفيون بأنك قبوري^(١) ، ولن تعدم من يتبرع بتكفيرك من أجل بحث في كرامات الأولياء ، أو كلام في السفور ، أو رأي في ابن عربي ... فأين الشاب المشغول بدروسه التهيئية لفحصه من هذا الخضم الذي يفرق فيه لو خاضه ؟ أو لا يعذر الشباب إذا لم يقدروا على درس الدين في كتبه ، ولم يجدوا من يفهم عنهم أو يفهمون عنه من علمائه ، فأثروا السلامة ، وابتغوا من العلوم والدراسات ما له كتب مفهومة ، وخلاصات واضحة ؟

أحسست بهذا النقص البين ، فكنت في وصفه وخطبت مراراً وسألت من توهمت فيه من العلماء سده وإكاله ، فوجدت من (علمائنا) والجمهور منهم لا يحسن شيئاً إلا إقراء الكتب

(١) كذا يقولون والقياس الأفراد عند النسبة — هذا ليس الفرض إعمال هذه الكتب ، فانها المصادر التي لا بد منها لمن يحب التخصص في علوم الفروع ولكن الكلام على طلاب المدارس

اطلع على نواحٍ من العلم الجديدة ، ومنها أنه ألف هذه الكتب القديمة وعرف أسلوبها ...

ولفات الآن إلى الموضوعات التي ينبغي أن يشتمل عليها الكتاب ، ماهي وما حدودها . ولست أحب أن أحدها وحدي بل أئين المراد إجمالاً . والمراد أن يلخص الدين الإسلامي في كتاب يضم بين دفتيه الإسلام الذي جاء به النبي محمد خالياً من الحشو والزيادات والبدع والخلافات ، يقرؤه الشاب المسلم الذي لا يعرف الدين ، فلا يحتاج بعده إلى شيء ، وقرؤه العايم فيفهم منه دينه ، وقرؤه الغربي (مترجماً) فيحصل له عن الإسلام فكرة واضحة صحيحة وإذا كان المسلم الكامل هو الذي أخذ الإسلام علماً وعملاً واعتقاداً ؛ وإذا كان حديث جبريل المعروف قد قسم الدين إلى إيمان وإسلام وإحسان ، وشرح الأول بأنه التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالتقدير خيره وشره ، وشرح الثاني بأنه النطق بالشهادة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، وفسر الإحسان بأنه عبادتك الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإن من المستطاع تحديد موضوعات كتاب « الدين الإسلامي » بأنها :

الإيمان وما يتصل به - الإيمان بالله (التوحيد) - الإيمان بالملائكة والجن والشياطين - الإيمان بالكتب - القرآن ، وما يتصل به من نزول ، وجمع وإعجاز - الرسالة والرسول - حياة النبي محمد ورسالاته - اليوم الآخر - القضاء والقدر - الصلاة : حكمها وفائدتها وكيفيتها وبيان المتفق عليه من أحكامها - الصوم - الزكاة - الحج - الأخلاق الشخصية في الإسلام - الأخلاق الاجتماعية في الإسلام - الإسلام من الناحية التشريعية - الإسلام من الناحية السياسية - فكرة عامة عن العلوم الإسلامية - المذاهب الأربعة والكلام عليها الخ ...

هذه هي الباحث المهمة ، وأهم منها أن تكتب بأسلوب لا هو بالأسلوب العلمي الجامد ، ولا هو بالأسلوب القصصي الخيالي ، وأن تكون تعليمية قبل أن تكون علمية ، وأن ترتفع عن كل خلاف أحدثه التأخرون ، وتعود إلى المنبع الصافي الذي استقى منه المصدر الأول خير القرون .

هذا وفي الموضوع مجال للايضاح والنقد والتمديد ، ولعل صفحات الرسالة لا تخلو من ذلك .

على الطنطاوي

« دمشق »

التي كان قرأها على مشايخه من قبل ، وشرحها كما شرحت له ، فإن خرجت به عن الحواشي والشروح ، عاد عامياً لا يكاد يصلح لشيء . ووجدت أكثرهم بعيداً عن الأدب ليس من أهل البيان ، ومنهم من لا يزال يظن (جهلاً) أن الإسلام كره الشعر وحرمه ويحتج بحديث : لأن يمتلي جوف أحدكم ... ولقد ثبت أن الذي يروونه جزء من الحديث رواية ويل للعصاين^(١) . ومن ابتعد عن الأدب ، ولم يتمرس بأساليب البلغاء ، لم يأت منه خير لأن علمه يقتصر عليه ، فلا يقدر على بثه بقلم ولا بلسان ... ووجدت أكثر (علمائنا) يعيش في دنيا أهل القرن التاسع ، ويفكر بقولهم . ومنهم من شغله منصب يحرص عليه ، أو مال يبائع في جمعه وادخاره ؛ ومنهم من أخذ إلى الراحة ، وابتنى الجاه والغنى من شر الطرق وأقصرها ، فخرق على العامة وأظهر الورع فيهم والتواجد . فإن قلت له : صلب الخبير ، أو سألته عن مسألة ... أجابك بـ (لا إله إلا الله) أو بالحوقلة والاستغفار ، يقلب سبخته في يده ، وينمض عينيه ، ويصمت حيناً خاشعاً مراقباً ، ثم يصرخ في وجهك صرخة من أقلت من (المصفورية) أو (العباسية) . ورأيت من هؤلاء من العجائب ما لو قصصته خلقت أن أكذب فيه لترايته ... فأبست منهم أو كدت ، ودفعني هذا اليأس إلى محاولة الكتابة في هذا الموضوع ، على قصر يدي فيه ، وقلة بضاعتي ، وأعددت (في نفسي) أكثر مباحثه ، ثم رأيت أن أفصح هذا الباب في الرسالة (باذن الأستاذ الزيات) لكل من أراد أن يكتب فيه وارثي الأستاذ ما كتب ، ورجوت أن يقبل على الكتابة العلماء والباحثون ، ينشئ كل منهم فصلاً من الكتاب ينشر اليوم في الرسالة . ثم إذا اجتمعت النصول وتحتها أحبابها وأطدوا النظر فيها أودعت صفحات كتاب يبقى إن شاء الله وينتفع به الناس ... ولعل الذي يمنع تحقيق هذا الرجاء أن أكثر من يكتب من الشباب رعك الأسلوب المشرق المبين لا اطلاع له على كتب الدين ، ولا لإلمام له بها . رأ أكثر العلماء (كما قدمت القول) غير مشتغلين بالكتابة . وعلاج ذلك أن يشترك في البحث عالم مطلع ، وأديب كاتب ، فيمشي الشاب الذي يحسن الكتابة إلى عالم يبدله على المراجع ، ويبين له الأحكام ، وينشئ هو الفصل بعد ذلك ، فيجتمع له فوائد ، منها أن البحث قد كتب وتم ، ومنها أنه

(١) أنظر كتاب (الاجابة) التي نشره أمي سيد الأفغان وحققه

وهاتف عليه (النسبة العائنية دمشق)